

## مكانة الشريف الرضى بين شعراء المديح

محمد جواد إسماعيل غانمي\*

على سبهيان\*\*

### الملخص

يعجز الإنسان مهما حرص واجتهد في دراسته أن يوفى الشريف الرضى بعض حقوقه. لأنّ الشريف الرضى إلى جانب العصر الذى عاش فيه - عصر زاخرٌ بالعلم، والمعرفة، والفكر التّير - يتجلى بعدة ميزات إلى جانب شخصيته الشعرية. أردنا من خلال هذا المقال أن ننصف الرضى وعبقريته، التى انشغل عنها القدامى بالمتنبى وشعره، ثم لم يلبثوا أن طلع عليهم أبو العلاء المعرى، فانشغلوا به إلى جانب انشغالهم بأبى الطيب. لهذا حاولنا أن نبحث عن مكانة الشريف الرضى بين شعراء المديح من خلال هذه الأسطر القليلة. فرأينا أنّ الشريف يحتل مكانه بارزة إذا ما قورن بشعراء المديح من معاصريه أو غيرهم. وأن المدائح عنده ذوات خلفية تغاير خلفيات المدح التى نعرفها لدى غيره من الشعراء، أى أنها لا تنطلق من رغبة فى كسب أو ملق أو نفع معين.

الكلمات الدليلية: المدح، الرضى، مكانة، الشعر، الأغراض، تكسب.

\*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى آبادان.

\*\* عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى آبادان.

## المقدمة

دراسة الشريف الرضى من أروع الدراسات، لأنها تغنى العقل قبل الفكر، وتفرض على دارسه أن يتروى كثيراً قبل القيام بعمله، لأنّ الشريف الرضى محيط من المعرفة الإنسانية، تتصل معرفته، بالدوحة المحمدية الشريفة.

ففي دراسة الشريف الرضى، نحن نواجه رجلاً من كرام الرجال، وشاعراً من أغنى من أنتجتهم الأمة العربية الإسلامية على امتداد تاريخها. ومن الواجب على الدارسين والباحثين، أن ينصفوا الرضى وشاعريته التي انشغلوا عنها بالآخرين.

## المدح عند الشريف الرضى

المدح عند العرب فن جميل من الفنون الشعرية، ازدهر به ديوان الشعر العربي، وأجمل أنواع المدح هي تلك المدائح التي، يتناول فيها الشاعر القيم الروحية والخُلُقِيَّة والإنسانية في الممدوح، ولكن نجد العديد من الشعراء قد خرجوا عن هذه الأطر، فركّزوا مدحهم لخدمة الأطماع والميول، وقد بالغوا فيه، حيث أصبح تكسباً، فأغرقت المادة، في أمواجها. لا شك أنّ الشعراء لم يكونوا كلّهم على هذا المنوال، فقد تجنب بعضهم هذا الصنيع، ولذلك حفظوا لشعرهم، الخلود والسمو بعد أن ارتفعوا به إلى ما يليق؛ وأبوا الاستجداء والاستعطاف والتملق على أعتاب السلاطين والأمراء.

وكان الشريف الرضى على رأس هذه الطبقة من الشعراء فمدائحه ليست كسائر المدائح، لأنّ الشريف لم يكن يتكسب بشعره، كما فعل ذلك بعض الشعراء الذين كانوا يبيعون قصائدهم، وبالتالي كراماتهم في بغداد؛ وإنّما كانت مدائحه كما يذكر زكي مبارك: «شاهداً على اشتباكه في المعارك السياسية، التي كانت تثور في فارس وفي العراق، فأكثر ممدوحيه كانوا يتذوقون الشعر والأدب والبلاغة، وأكثرهم كانوا من الفتيان الأبطال، الذين يعشقون جليل الصفات، ولعلّ الشريف أنس بهم فمدحهم بغرر معانيه.» (مبارك،

١٩٨٨م، ج ١: ٦٣)

إنّ مدائح الشريف الرضى تبلغ ثلث ديوانه، وقد توزعت بين أسرته (والده وشقيقه

وخاله) وبعض الخلفاء العباسيين، وملوك بني بويه ووزرائهم، إضافة إلى شيوخه وأصدقائه.

وأما حرص الشريف الرضى على مدح بعض أصحاب أو أرباب السلطة، فلم يكن رغبة في منفعة رخيصة بخسة، وإنما كان هدفاً إلى خدمة وطنه الذى جار عليه الزمن آنذاك، لأن الرضى خلال حياته شهد صراعات سياسية كثيرة. وكان خلفاء بني العباس فى عهده لا يملكون من أمرهم ضراً ولا نفعاً، وكان يكفهم من الخلافة الاسم. لذلك كان يخص بالمدح من يرى فيه القدرة على إنصاف العراق، ولو لم يكن الأمر كذلك، لكان فى غنى عن هذا المديح، لأن سلطته الروحية والمكانة المرموقة التى يتحلى بها هو وأبوه بين الناس، أعطته مكانة عالية، حرص عليها حتى أصحاب الجاه فى القرن الرابع الهجرى. فالشريف كان أمير الحج، ونقيب الطالبين، ووالى ديوان المظالم. (الأمينى، ١٣٦٦ش، ج ٤: ١٨٢؛ وبروكلمان، لاتا، ج ٢: ٦٢) وهى مناصب تغنيه لاشك عن المديح بغية الكسب المادى، فقد كان أصحاب الجاه ومقالد الحكم، بحاجة إلى أبى أحمد الموسوى، وإلى وريثه فى المناصب وابنه، الشريف الرضى. وذلك كان بسبب نفوذ هذين الشخصين ومكانتهما العالية بين القبائل العربية، التى كانت تسد الطريق إلى البيت الحرام، وتشهد كتب التاريخ أن أهل العراق وأهل فارس وأهل خراسان، انصرفوا عن الحج أعواماً بسبب الخوف من التعديات، فكان وجود الموسوى وابنه من بعده، كفيلاً بوضع حد لهذا الوضع المضطرب، إذ كان لهما نفوذ بالغ بين القبائل وسلطتهم الروحية كانوا ينالون منها من القبائل ما تعجز عنه السيوف.

وفى مخاطبة الشريف القادر دليل واضح على أن مدحه لأولى الأمر لم يكن تكسبياً، فهو يرى نفسه أحق الناس بالخلافة، وأجدرهم بها.

|                           |                            |
|---------------------------|----------------------------|
| عظفاً أمير المؤمنين فإننا | فى دوحة العلياء لانتفرق    |
| ما بيننا يوم الفخار تفاوت | أبدأ كلانا فى المعالى معرق |
| إلا الخلافة ميزتك فإنسى   | أنا عاطل عنها وأنت مطوق    |

(الشريف الرضى، ١٤٠٦م، ج ٢: ٤٢)

القصيدية المدحية عند الشريف الرضى، متعددة الأغراض، إذ يرى فيها بالإضافة إلى المديح؛ الوصف، والفخر، والحكمة والهجاء والنسيب. وأروع قصائد المديح فى ديوانه، تلك التى تتناول شخصية والده، فقلما تمرُّ مناسبة أو عيد، إلا ومدحه بقصيدة من عيون الشعر، لأنه كان يرى أباه المثل الأعلى، والذى تعلو مكانته، مكانة الخلفاء، بل يعتقد أن أباه أولى منهم بالملك والسلطان، وقدمدحه بأكثر من ثلاثين قصيدة، تعتبر قمة من قمم الشعر التى تربى الأخلاق وتسمو بالإنسان إلى المعنويات العالية.

وهكذا فإنَّ المدائح مع كثرتها فى ديوان الشريف، لكنها ذوات خلفية تختلف مع خلفيات المدح، التى تعرف لدى غيره من الشعراء، أى الشريف لم ينطلق من رغبة فى كسب أو ملق أو نفع معين، بل إن أكثر مدحه يصدر عن قرابة أو صداقة أو مودة هذا مع إنَّ الشريف كانت له صلوات ودية بكبراء زمانه، من خلفاء ووزراء وأدباء، ولكن لم يجد نفسه، مجبوراً كشاعر فى مدح هؤلاء، وذكر فضائلهم ومآثرهم. مع أن العديد من هؤلاء الكبراء قاموا بأعمال جيدة فى ميادين العمران وساحات النضال ونشر المعرفة والثقافة. المهم أن قول الشعر، لم يكن فى سيرة الشريف، بضاعة للتجارة، بل أداة هم، وموضع شكوى:

بضائع قول عند غيرى ربحها      وعندى خسراتها والوضائع

(الشريف الرضى، ١٤٠٦ق، ج: ١، ٦٦٥)

والأصل الثابت فى هذه المواقف المشرفة، تفرد الشاعر بما وهبه الله، وعزة نفسه:

لقد كان لى عن باحة الذلّ مذهبٌ      ومضطربٌ عن جانب الضيم وواسعٌ

(الشريف الرضى، ١٤٠٦ق، ج: ١، ٦٦٥)

أما مدائحه فى الملوك والأمراء خاصة، تختلف عن مدائحه فى أسرته، فكما يقول الكاتب عبد اللطيف شرارة، كانت: «تحمل فى ثناياها، ضروباً من الفخر والافتخار، وكانوا يلحظونها على مضض، ويهملون لحاظها تعالياً واستكباراً، مكتفين بالظاهر منها أنّها قيلت فى مدحهم.» (شرارة، ١٩٩٣م: ٥٥)

ولكن مدائح الرضى التي خص بها الأدباء من الوزراء، تدلّ على إعجاب واحترام كبيرين، يقول عبداللطيف شرارة: «إن مدائح الشريف الموجهة إلى الأدباء من الوزراء، كالصاحب بن عباد، وسابور بن اردشير، وزير بهاء الدولة البويهى تنمّ عن إعجاب أدبي، ومودّة مضمّخة بأرج روحانى، لاتقع على شىء منها فى مدائحه الأخرى، سوى تلك التي خصّ بها قوام الدين وبهاء الدولة، وهذا يدخل فى عداد أصدقائه المخلصين، شأنه شأن أبى أسحاق الصابى. (شرارة، ١٩٩٣م: ١٦٣) وكان ما كتب إليه وهو فى فارس:

وما تلّوم جسمى عن لقاءكمُ  
إلاّ وقلبى إليكم شيقٌ عجلُ  
وكيف يقعدُ مشتاقٌ يحركه  
إليكم الحافزان الشوق والأملُ  
فإن نهضتُ فما لى غيركم وطرُ  
وإن قعدتُ فما لى غيركم شغلُ  
لوكان لى بدلُ ما اخترتُ غيركم  
فكيف ذلك، وما لى غيركم بدلُ  
وكم تعرّض لى الأقوام قبلكمُ  
يستأذنون على قلبى، فما وصلوا

(الشريف الرضى، ١٤٠٦ق، ج ٢: ٢٢٨)

وهكذا هو المدح عند الشريف الرضى، فإنّه يعطى الصداقة أزهى ألوانها وأجمل صورها. وهى مع أقاربه وأصدقائه، بحيث يتحول المدح إلى حلية أو زينة، يقدمها الشاعر إلى من يأنس بهم ويرتاح إليهم. وهم بدورهم يأنسون به، وإليه يرتاحون. وكما يقول الفاخورى: «لم تكن مدائح الشريف للتكسب، إنما كانت عبارة عن اشتباكه فى المعارك السياسية الناشبة فى فارس والعراق، ووسيلة إلى أغراض سياسية، وعنواناً على متابعته لتقلب الأحوال.» (الفاخورى، ١٩٨٧م: ٦٦٥)

### مكانة الشريف بين شعراء المديح

يحتل الشريف مكانة بارزة وسامية، إذا ما قورن بشعراء المديح من معاصريه أو غيرهم. لأنّ مدائح الرضى ذوات خلفية، تغاير خلفيات المدح التي نعرفها لدى غيره من الشعراء، أى إنها لاتنتقل من رغبة فى كسب أو ملق أو نفع معين، بل إن معظمها يصدر عن قرابة، أو صداقة أو مودّة. وسبب ذلك، أن الرضى عُرف كشاعر من جهة، وكانت له

من جهة أخرى، صلات متينة بكبراء زمانه، من خلفاء وأمراء ووزراء وأدباء. إذن قول الشعر في سيرة الشريف لم يكن بضاعة للتجارة، بل أداة همّ وموضع شكوى:

بضائع قول عند غيرى ربحها      وعندى خسراتها والوضائعُ  
(الشريف الرضى، ١٤٠٦ق، ج: ١، ٦٦٥)

والأساس في مواقفه هذه، تفرّده بمواهبه واعتزازه بنفسه:

لقد كان لي عن باحة الذلّ مذهبٌ      ومضطربٌ عن جانب الضيم وواسعُ  
(الشريف الرضى، ١٤٠٦ق، ج: ١، ٦٦٥)

بما أن البحث عن مكانة الشريف بين شعراء المديح، لهذا حاولنا أن نقارن هذا الشاعر بشاعرين شهيرين من العصر العباسي، عُرفا في جانب كبير من شعريهما بالقصائد المدحية، وهذان الشاعران هما ابن الرومي والمنتبي.

أما ابن الرومي، مع أن المديح يحتلّ حيزاً كبيراً في شعره، ولكن رغم ذلك، فهو لم يأخذ الأهمية التي أخذتها سائر الأغراض في شعره، وسبب فشله في هذا الفن، إكثاره بالسؤال فيه من جهة، ولأنّ العصر لم يغدق على المتكسبين من أمثاله، كما فعل العصر الذي سبقه. وعلة أخرى أيضاً كانت سبباً في عدم موفقيته في هذا الغرض، وهي الإطالة المملّة التي لم يعرف الشعر العربي القديم مثيلاً لها. فإذا قارنا الشريف بابن الرومي، في هذا المجال لرأينا الشريف يمتاز عليه من جوانب عديدة، كما يتفوق عليه تفوقاً صارماً، انطلاقاً من تجنب الرضى من التكسب في شعره، إلى ابتعاده من التعقيد في الكلام، وثمة ميزات أخرى.

قلنا أن الرضى عليه الرحمة، ابتعد عن التكسب والطلب في مدحه، ولم يخضع شعره للدارهم، وهذه الصفة واضحة وجلية في شعره. فمثلاً الأبيات التي مرت عند مخاطبة القادر خير دليل على ذلك:

عطفاً أمير المؤمنين فإننا      في دوحة العلياء لانتفرق  
ما بيننا يوم الفخار تفاوت      أبداً كلانا في المعالي معرق  
إلاّ الخلافة ميزتك فإنني      أنا عاطل عنها وأنت مطوّق

(الشريف الرضى، ١٤٠٦ق، ج: ٢، ٤٢)

ولكن ابن الرومى عندما يخاطب ذوى الشأن والسلطان، فمن المضحك المبكى فى مدائح هذا الشاعر الغريب العجيب، إنه يفلق الممدوح وينهكه، بكثرة الشكوى والبكاء على شبابه الداوى، ليدرّ عطفه عليه، ويشير حنين مشاعره لإغداق كرمه، بأسلوب لا يتورع عن استهلاله بالنسيب الذى جرى عليه المحافظون على القلب الشعرى القديم، بما فى ذلك، ذكر الحكم ومجالس اللهو، وذكر حال بؤسه وشدة فقره التى توجب على الممدوح المبادرة الفورية لإجزال العطاء.

أثبنى ورفهني وأجزل مثوبتي      وثابر على إدرار بزى وواظبي  
أثقلُ إدلالى لتحملَ ثقله      بطوع المراضى لابكره المغاضبِ

(ابن الرومى، ١٩٩٤م، ج ١: ١٤٢)

فأنت ترى الشاعر، يتلو قصّة، ترشد الممدوح نحو الفضائل المتكسبة، ثوب الحلم البعيد عن الغضب. وانبرى يعرض عللا قصصية، تتعلق بحاله والمشقات التى أعجزته فى أسفاره. وفى هذا النوع من التكبس النافر لدى الخلفاء العباسيين، ضجّ شاعرنا بقصائده غير المقبولة عندهم، فهو حين يراهم لا يستجيبون لشروطه المنطقية - فى نظره - يذهب إلى العتاب والشكوى من إعراض ممدوحه عنه، ويصرّ فى طلب الصفح والعطف لعطاياهم، ويغرق نفسه فى مذلة التصغير لشأنه، كى يحظى بالرافة والرضا، ضمن أسلوب الصراحة البعيدة عن المواربة حتى يقول:

كأنك قد أنسيت أنك سيدٌ      له الفضلُ، أو أنسيت أنّي خادمٌ

(ابن الرومى، ١٩٩٤م، ج ١: ٤٢)

ويبقى على حالته تلك، وما فيها من احتقار لنفسه، وتصغير شأنه، حتى يخرج أبياته بغريب الألفاظ مقبولة عند ممدوحيه.

ألك الأمر والسياسة واسمُ      المعتفك الصلوك والقرضوبُ  
ثوبى الرث والثياب طراءُ      وطعامى، برغمى المجشوبُ

(ابن الرومى، ١٩٩٤م، ج ١: ٢٢٢)

ويضيف إلى ذلك كله لزوم ما لا يلزم من قوانين الصناعة التى فاق بها أهل عصره،

وهذا الأمر لم نره عند الرضى، حتى فى مدائحه للملوك والأمراء، فإن مدائحه فيهم تحمل فى ثناياها ضروباً من الفخر والاعتزاز، وذلك ملحوظ فى أيام يسره وعسره، خلافاً لابن الرومى الذى نلمح عتابه وشدة إلهامه، لا فقط لحاجة تؤلم بطنه الخاوية، أو قرص جوع أشعرته بدنو أجله. بل نلمح هذا الإذلال والانكسار فى السؤال بشعره فى أيام يسره أيضاً، حيث يخاطب عبید الله قائلاً:

أتحرمنى لأننى مستغلٌ وأننى لستُ كالرزحى السغاب؟

(ابن الرومى، ١٩٩٤م، ج ١: ١٧٢)

فى الواقع فإن ابن الرومى قد غرّد فى هذا الغرض من الشعر خارج سربه، ومن أجل ذلك لم ينجح به، ولا كان غرضاً ناجحاً فى قصائده.

فطريقته فى المدح لم يلتفت فيها إلا إلى المال وحده، فأينما حلّ المال، حلّ فيه ابن الرومى وطريقته للوصول إلى النوال، تتعدد مع حالة المقصد الذى يصبوا إليه، مهما كان فإن ابن الرومى يتكيف مع الحال تكيف الماء فى الإناء، والمقصد وراء مديحه هو التكبس ولاغير.

طبعاً من الأمور الطريفة، المضحكة التى لا بدّ أن نضيفها إلى مدح ابن الرومى، هى تهجمه على من يمدحه، حين يعرض عنه، ولا يشببه على ما جمّله به من عذب الكلام الذى كساه إياه. يقول فى ذلك:

يا مادح القوم اللئام وطالباً نيل الشحاح  
ما أنت فى زمن المديح ولا الهجاء والسماح  
فاشغل قريضك بالنسيب وبالفاكهة والمزاح

(ابن الرومى، ١٩٩٤م، ج ١: ٢١٠)

وقد يتساءل الإنسان، أليس ذلك حقاً للشاعر مشروعاً، أو ليست المكافأة هنا دليل التقدير وحسن الظن بكفاءة الشاعر، والإعجاب بقوله وفنه، وهل يفعل أديب اليوم غير هذا؟! وأن أشدّ ما يغيب الفنان والشاعر، أن لا يجد أحدهما صدى استحسان لما يقوله، فيشره ذلك، فيلجأ إلى هجوهم انتقاماً لشرف شعره، وكرامة الكلمة والنفس، ولهذا الأمر

اضطر ابن الرومى أكثر من مرة أن يعلن بصدقه وصراحته:

وإذا ما مدحتُ المرءَ يوماً ولم يثب      مديحى، وحقُّ الشعر فى الحكم واجبُ  
كفانى هجائيه قيامى بمدحه      خطيباً وقولُ الناس لى «أنت كاذب»

(ابن الرومى، ١٩٩٤م، ج ١: ٨٨)

فللشعر حق واجب فى الحكم، وعلى الآخرين أن يقدرُوا هذا الحق، وبكافتوا أصحابه، ويثيبوهم، وإلاّ ساءهم ذلك وأحقدوهم عليهم لسوء فهمهم، وعدم إعطائهم حقهم. طبعاً لا يختلط الأمر على القارئ الكريم، فقد يكون عدم إثابة ابن الرومى، لأنه كان يستجدى بشعره ويذل نفسه، حيث قد خرج عن الإطار المألوف لدى الشعراء عندما يجلسون على أبواب الملوك والأمراء، مما كان يثير حفيظته ويزيد من حقه ونقمته، وكلّ هذه الأشياء التى ذكرت، لم توجد ولم يألّفها الشريف الرضى، لأنه لم يقصد من وراء مديحه سوى إبراز قدرته الشعرية، وحاجته النفسية، هو دائماً يتغنى بمآثره ومآثر أجداده الكرام، ويفخر بنفسه الأبية التى ترفض الخنوع والتذلل لذوى السلطان من خلفاء، أو أمراء، أو وزراء. يقول فى مدحه للملك بهاء الدولة:

فجرّبنى تجدنى سيف عزمٍ      يصمّ غربه وزنادَ راءٍ

(الشريف الرضى، ١٤٠٦ق، ج ١: ١٦٠)

فهو يفتخر بنفسه، ويقف له ولا يذل نفسه، كما كان يفعل ابن الرومى أو غيره من الشعراء.

وأما المتنبي فإن الشريف يتفق معه فى مجادلات كثيرة، منها فن المديح الذى زخر به كلاً من ديوان الشعراء. وقد ذكر حنا الفاخورى فى حديثه عن المدح عند الرضى قائلاً: «إن الشريف الرضى عندما ينتقل إلى ممدوحه يكثر من وصف القتال، والإيقاع بالأعداء، ثم يفخر بنفسه وبفعاله لكى يستميل الممدوح، وهو فى كل ذلك يشبه المتنبي الذى يحاول الشريف أن يقلده فى معانيه، وأساليبه، وصوره من غير أن يبلغ شأوه. فبعيد ما بين اندفاع المتنبي وثورته العاطفية وقوته الجبارة، واندفاع الشريف الذى يمازجه اللين حتى فى أعظم مواقف الشدة.» (الفاخورى، ١٩٨٧م: ٦٧٣)

لاشك أن الرضى قد جاء بعد وفاة المتنبي بمدة وجيزة، وكان المتنبي آنذاك، كما يقال «ملاً الدنيا وشغل الناس» ولاشك أنه كان من رواد الشعر وأصحاب الرأي والكلمة فى الأدب، وقد سطر أروع وأعظم البطولات فى ميادين الشعر والنزال، ولا بد أن يتأثر بهذا العملاق سائر الشعراء إذا ما أرادوا أن يتجولوا فى أرجاء الشعر العربى. منهم شاعرنا الشريف الرضى، الذى - كما يذكر حنا الفاخورى - حاول التقرب منه ومجاراته. ولكن رغم ذلك، فإن الرضى تفرّد بعدة أمور عن المتنبي خاصة فى فن المديح.

أسلوب المتنبي فى المدح، هو الأسلوب القديم، الذى يبدأ باستهلال القصيدة بالغزل والوصف، وصف الديار والمطية والسير، إلى الممدوح حتى يتخلص إلى المدح، ولكن الرضى خالف هذا الأسلوب القديم فى العديد من جوانبه. فهو كثيراً ما يستهل القصيدة بالفخر والشكوى من الزمن، وقلماً يبدأها بالغزل والوصف وذكر الديار وما إلى ذلك من الأساليب المعهودة فى الشعر العربى. طبعاً لا بدّ هنا أن نذكر أن هذه الظاهرة - الاستهلال بالفخر والشكوى - وجدت عند المتنبي، أو كانت موجودة، قبل أن يتصل بالحمدانيين، ولكن ما إن اتصل بهم، حتى أخفت شخصية الممدوح (سيف الدولة) شخصية الشاعر، لأنه كما سوف نبين كان يراه مثله الأعلى، الذى تتجلى شخصيته فيه.

ومن الأشياء التى تفرّد فيها الرضى أيضاً وأمتاز بها على كثرة مدائحه هى الجودة والفصاحة والرصانة التى توجد فى مدائحه. ولو نظرنا إلى شعر المتنبي المتقدم عليه فى العصر، نجده مع ماله من مكانة فى الشعر والأدب، يشتمل على سقاطات لاتقع من أدانى الشعراء. يقول حنا الفاخورى فى ذلك: «فى مدائح المتنبي معانٍ ساقطة وألفاظ مبتذلة وتعابير معقدة، وفيها مبالغات بالغة، ولا سيما فى وصف القوة، حيث يعتمد الشاعر إلى تشابيه شاذة، فاسدة الذوق أو قليلة الاحتفال بحرمة الأشياء المقدسة.» (حنا الفاخورى، ١٩٨٧م: ٦٤١) ولكن هذه المواصفات، ليست موجودة عند شاعرنا الشريف الرضى، فمدائحه فى غاية الدقة والجودة والرصانة.

الشيء المهم الذى لا بدّ من الإشارة إليه هنا بالنسبة لهذين الشاعرين العبقريين، هو تقربهما من الملوك والأمراء، ومدحهما هؤلاء.

فى واقع الأمر إنّ الرضى والمنتبى، عاشا فى فترة استحوذت على معظم الجهود والأفكار والنزعات، طيلة هذه الفترة -أى القرنين الرابع والخامس - فكرة الدولة وصيانتها وإرسائها على قواعد تكفل لها البقاء، دون أن يوفق أحدٌ منهم.

إذ أفضت الدولة العباسية إلى التفكك والانحلال، على يد الحروب الصليبية فى الغرب، وغزوات المغول والتر من الشرق، وكان الوهن قد بدأ يدبّ فى عروق الدولة منذ ولى المتوكل سدة الخلافة، وانتهى مقتولاً بمعونة ابنه ولى العهد الذى لقب «المنتصر» فلم تكن الدولة العباسية إذا سوى «فكرة» أو «وهم» قائم فى الأذهان، أما الواقع المحسوس، فكان يتمثل تقلباً فى سرعة الأحداث والإدارة واضطراباً فى الملوك، وقد زاد الأحداث تقلباً والسلوك اضطراباً، تدخل العناصر الأجنبية فى العراق، وراح الفرس والأتراك، وفروع هؤلاء وأولئك (البويهيون والسلاجقة) يمارسون تأثيراتهم المتضاربة، المتغيرة فى الحياة العامة وتيسير شؤونها، وإدارة مرافقها، مما جعل تلك الحياة فوضى لا يملك أحدٌ أن يحول دون الكوارث ووقوعها، على كل مستوى وصعيد.

وهذه الفوضى الشاملة التى عمّت وسادت، أصبحت الهواء الذى يتنفسه الناس، والحقيقة الماثلة التى تورق الشاعر والمفكر والعالم فى كل أفقٍ وبلدٍ وأسرة، هذه الأوضاع هى التى عاشها الشعراء الرضى والمنتبى وكانت الدولة (دولة الخلافة) موزعة شرّاً توزيع بين البويهيين والعلويين والعباسيين والحمدانيين والفاطميين والسلاجقة والأمويين (الأندلس)، فكان كلا الرجلين يبحثان عن طريق لتكوين دولة أو صيانة الدولة.

وقد وجد المنتبى ضالته فى بنى حمدان وفى شخص سيف الدولة، الأمير العربى بالذات وكان سيف الدولة يجسد أمرين أصيلين فى نظر أبى الطيب: «أولاً: خلق نادر، فى عصرٍ انهارت فيه الأخلاق وانحدرت القيم، وابتعد الناس جميعاً عن الأصالة والجوهر، وصار الانحراف مفخرة وفضيلة. والأصالة هنا خصائص متصلة بالجدور، أى بالتراث الخلقى والحضارى والإنسانى، الذى أبدع تاريخاً من الفعل والعطاء نادر الوجود.

ثانياً: طموح كبير إلى اجتثاث فساد المجتمع من أصوله، وإقامة بناء يكافى الماضى العظيم واسترجاعه بحاضر ومستقبل، لا يكرانه فى جزئياته وحيثياته، وإنما يرتفعان

إلى مستوى عظمته فى الإبداع، ويتخطيانه بإبداع يتناسب مع طموح الأمة إلى البناء الحضارى المتقدم والمتطور.» (الجندى، لاتا: ٦)

ولهذا استحوذ سيف الدولة على فكر المتنبى وخياله، فكان عوناً له وحافزاً على اندفاعه فى تيار الثورة والتغيير. فتقرب منه ومدحه بجياد قصائده، لأنه مثله الأعلى الذى يمثل ثورة لا تهدأ ورفضاً شاملاً لكل المعايير والموازن القائمة.

قصائد المدح التى أنشدها المتنبى فى سيف الدولة كانت تحمل فى طيها صدق العاطفة والإخلاص لهذا الأمير، لأنه كان يرى فيه مناه. وكان سيف الدولة أيضاً يغدق عليه العطاء والمال. ولكن فى حقيقة الأمر، لم يكن مدحه فى سيف الدولة من أجل هذا المال وهذه الصلات، بل كان يجد فيه القائد النموذجى والفارس الذى يمثل الثورة العارمة فى كيانه. وقبوله صلاته ما هو إلا صدى للشكر والتقدير من قبل سيف الدولة، وليس قبول ذلك دليل على أنه كان يتكسب من وراء شعره فى بلاط سيف الدولة. طبعاً لاشك أن مدحه فى هذا الأمير لا يخلو من نفع، ولكن هذا النفع، لم يكن الغاية كلها، بل كان المال وسيلة لبلوغ المجد والعظمة. ولاشك أن الثورة التى كان يعيشها المتنبى، كانت بحاجة ماسة إلى المال والمال عنده ضرورى لا يقوم المجد بدونه:

فلا مجدَ فى الدنيا لمن قلَّ مالهُ      ولا مالَ فى الدنيا لمن قلَّ مجدهُ

(المتنبى، ١٩٨٦م، ج: ١، ١٢٣)

فهذه الأفكار كانت تخامر أبا الطيب فى ثورته وكان يستمر على الثناء ما استمر العطاء. حتى إذا أغفل عنه ولم يصله، أخذ انقلب وراح يضرب فى البلاد ناقماً على من مدحه لأنه لم يجازيه على مدحه. لهذا يهجو هجاءً مريراً. يقول عصام السيوفى: لعلَّ أشدَّ الطاعنين فى المتنبى: هو أبو بكر الخوارزمى، الذى اتهم المتنبى بأنه يشكر ثم يشكو، ويمدح ثم يهجو، ويشهد ثم يجرح شهادته، ويعطى ثم يسترجع عطيته. وإنه فضل

الأمراء ثم تلبهم. (السيوفى، ١٩٨١م: ٢٠٢)

قد نلاحظ التكسب فى مدح المتنبى أكثر وضوحاً، وذلك عندما انتقل إلى بلاط كافور الإخشيدي فى مصر، تلبيةً لما وعده به كافور. لهذا فى بداية الأمر مدحه بقصائد معدودة،

ولمّا لم يجد عنده مراده، ولم يفِ بوعدِه هجاء وتركه. فالمتنبى لم يكن مخلصاً لكافور عندما مدحه، لهذا الأمر شكك الكثيرون فى صدق أبى الطيب، حتى أن الخوارزمى اتهمه كما أشرنا «بأنه يمدح ثم يهجو» ولكن، كأنما عصام السيوفى قد ردّ على هذا الرأى قائلاً: «وسترى أن المتنبى كان صادقاً شديداً الصدق فى موافقه كلها؛ وإنّ الأشكال المعروفة ما كانت أبداً، عائقاً له من تضمينها كل ما كان يعتقدُه ويؤمن به ويريد قوله. وحتى مديحه الموجه حيث اضطر \_ لسبب أو آخر \_ إلى بعض المداراة \_ بله كلها \_ فإنك ترى أنه قد ضمّن هذا المديح حقيقةً مشاعره وما كان فى ذلك كاذباً!! وإن غلط الناس فى تعليل ذلك وفهمه حتى اتهموه بنكران الجميل يمدح ثم يهجو.» (السيوفى، ١٩٨١م: ٢٠٢)

وأما الشريف الرضى، عاش نفس الفكرة أيضاً؛ فكرة الدولة والمحافظة عليها وصيانتها.

لأنه مرّ بنفس الأحداث من تفكك الوحدة الإسلامية، وضعف السلطة المركزية فى بغداد، فأخذ يصرخ فى ساعة ضيق وهم:

ما مقامى على الهوان وعندى      مقول صارمٌ وأنفٌ حمى  
ألبس الذلّ فى ديار الأعداى      وبمصر الخليفة العلوى

(الشريف الرضى، ١٤٠٦ق، ج ٢: ٥٧٦)

«وهذه الأبيات حملت القادر بالله، الخليفة العباسى على معاتبة والد الشريف، مما حدى بصاحبها على إنكارها والتبرؤ منها، ولكنها كانت قد شاعت وعرفها الكثيرون من معاصريه.» (شرارة، ١٩٩٣م: ١٦)

وتارة من أجل هذه الأمور نراه يتقرب من الخلفاء والملوك ويمدحهم، لالعطايهم بل لأمرٍ سياسية كان يعيشها الشاعر؛ لأنه عاش ونشأ فى ظل سلطة غريبة، وليس للخليفة العربى منها سوى الاسم والعنوان الأجوف. هذا ما جعل الشريف يئنّ ويشكوا ويتظلم:

أبغداد ما لى فيك نهلةً شارب      من العيش إلاّ والخطوب مزاجها

يخيل لى أنّ الأمالي غياهب ولا تنجلي إلا وعزى سراجها

(الشريف الرضى، ١٤٠٦ق، ج:١، ٢٣٤)

ويغلوها به الألم فى بعض الحالات، إلى درجة يتذكر معها المنصور، منشىء بغداد:

لو بعث المنصور نادى: أيا مدينة التسليم لاتسلمى  
قد سكن الفقر بنو هاشم وانتقل الملك إلى الديلم  
لو كنت أدري أن عقابهم لذاك، لم أقتل أبا مسلم

ومهما يكن فإنّ مدح الرضى لا يخلو من نفع على حد تعبير حنا الفاخورى، ولكن ليس بالمعنى العام الذى قد يفهمه البعض من النفع، بل كان نوعاً من المقايضة لمعنى من معانى المجد بين الشعراء ومددوحيهم. فلا الشاعر كان غنياً عن محافل الخلفاء والملوك، لأنهم الطريق الأوحى إلى مجده؛ فبدونهم تُضرب عليه عزلة لا يحس به فيها إنسان. يقول نزار قباني: «كتابة الشعر عذاب جميل، أما قراءته فعذاب أجمل... وحين يقرأ الشاعر شعره فإن مهمته تكون أصعب، لأنّ عليه حينئذ أن يبحث عن من يقبلون بمحض إرادتهم واختيارهم أن يحترقوا معه، العمل الشعري لا يكتمل إلا بالآخرين، وبغير الآخرين تبقى التجربة الشعرية فى جبين الشاعر كالعطر المحبوس فى أحشاء البرعم، لا ينتفع به حقل ولا تفرح به رابية...» (قباني، لاتا: ١١٣ و ١١٤)

فتجربة الشاعر بدون الآخرين هى إذن تجربة ناقصة، مبتورة لاتتم ولا تتكامل إلا بالآخر.

وبما أن الخلفاء أنفسهم ليسوا فى غنى عن تردد الشاعر عليهم أو توظيفه عندهم، فهم يشعرون بالحاجة إلى هذه الكلمة التى تخلدهم، وتشهر أمرهم، وتنشر ذكرهم بين الناس وتملاً نفوسهم بالغبطة والمتعة. وكانوا بالتالى مستعدين للمكافأة عليها.

إذن، إن كان الرضى أو المتنبي قد قبلا من أجل مدحهما صلة أو عطاء، فليس بالعيب؛ أو الشىء الذى قد يؤخذ عليهما، كما ذهب بعض الدارسين والباحثين، خاصة بما أخذوه على المتنبي، إنما هو فى الواقع، تجسيد لمواقفهما السياسية.

فى واقع الأمر من حق الشاعر أن يكافأ على كلماته، وإنّ أشد ما يغيظ الفنان

والشاعر، أن لا يجد واحدهما صدى استحسان لما يقوله، أو أن يلمس سوء فهم الآخرين وعدم تقديرهم شعره حق قدره، فيغضبه ويشيره ذلك، فيلجأ إلى هجوهم انتقاماً لشرف شعره وكرامة الكلمة والنفس كما فعل المتنبي بعض الأحيان.

مدحتُ قوماً وإن عشنا نظمْتُ لهم      قصائدًا من إناث الخيلِ والحُصنِ  
تحت اعجاج قوافيها مضمرّةٌ      إذا تُنوشدن لم يدخلن في أذنِ

(المتنبي، ١٩٨٦م، ج ٢: ٣٤٥)

فلاحظ أهمية الكلمة وقد صارت فارساً مقاتلاً عنيداً. ويشبه بذلك ابن الرومي كما أشرنا سالفاً.

فالرضى وإن لا يخلوا مدحه من غرض نفعي، ولكن مدحه في مجمله لم يكن تكسبياً. فقد فاق المتنبي في هذا الأمر، لأنّ المتنبي قد أجهَرَ بالطلب، وأدّل نفسه أمام الممدوح، كما جرى ذلك بينه وبين كافور في مصر، خاصة في قصيدته المعروفة «كفى بك داءً» كما ذهب بعض النقاد منهم الدكتور كاظم حطييط في كتابه أعلام ورواد في الأدب العربي.

#### النتيجة

وأخيراً نقول إن مدح الشريف لم يكن للتكسب، وإن لم يخلُ أحياناً من غرض نفعي؛ والشريف قد خالف أسلوب الأقدمين في الاستهلال بالغزل والوقوف على الديار، وافتتح قصائده بالشكوى من الزمان أو الفخر أو بعض الكلام الوجداني، وأيضاً أضرب صفحاً في مدائحه عن المجون، والمبالغات والتعقيد اللغوي أو المعنوي، لهذا جاءت قصائده مَرِنَةً، فصيحة، لا يملها السامع، ولا ينفّر منها.

وكان الرضى في مدحه وإن حاول أن يحاكي المتنبي، ولكن كانت له قاعدة مستقلة في المدح لم تكن للمتنبي. وأما تقربه من ذوى الشان والسلطان، لم يكن إلا لأموراً سياسية، نظراً للفترة التي عاشها الرضى وعاشتها الأمة الإسلامية، وعاشها العلويون بالذات، كما أن الخلفاء والأمراء أنفسهم، كانوا بحاجة إلى الرضى كما كانوا بحاجة من

قبل إلى أبيه الموسوي، لسلطتهم الدينية والروحية على القبائل العربية، وحماية طريق الحج وسائر الأمور الأخرى. وهذه الميزات في حد ذاتها كافية لتبين لنا مكانة الرضى بين شعراء المديح من معاصريه أو غيرهم.

وإذا كان ابن الرومي في نهاية قصائده المدحية، يذلل نفسه، فقد كان المتنبي والشريف يتأرجحان بالفخر العظيم والسماوات الرفيعة، مما يبرز مكانتهما في المدح بين سائر شعراء المديح.

وإذا أردنا أن نعطي المتنبي والشريف مكانتهما في المديح، نقول إن المتنبي كان نجماً في سماء الشعر والشعراء قد ازدان بنوره الواضح، وأما الشريف فكان كوكباً جلا بنوره في سماء الشعراء، كلما يتصفون به من أوصاف تنبئ عن ضعف في الشخصية أو المكانة. فهو الكوكب الذي تمتد عروقه من الدوحة المحمدية الرفيعة، ومن الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. ولذلك لم يكن الشعر قد زانه، بل هو الذي قد زان الشعر. وهذه أسمى السمات فيه.

### المصادر والمراجع

ابن الرومي. ١٩٩٤م. *الديوان*. بيروت: دار الكتب العلمية.  
 الأميني، عبدالحسين أحمد. ١٣٦٦ش. *الغدير في الكتاب والسنة والأدب*. طهران: دار الكتب الإسلامية.  
 الأميني، محمد هادي. ١٤٠٨ق. *الشريف الرضى*. طهران: مؤسسة نهج البلاغة.  
 بروكلمان، كارل. لاتا. *تاريخ الأدب العربي*. ترجمة: عبدالحليم النجار. قم: دار الكتاب الإسلامي.  
 الجندی، إنعام. لاتا. *المتنبي والثورة*. بيروت: دار الفكر اللبناني.  
 حطيط، كاظم. ١٩٨١م. *أعلام ورواد في الأدب العربي*. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.  
 السيوفي، عصام. ١٩٨١م. *العوامل السياسية في شعر أبي الطيب المتنبي*. بيروت: دار الفكر اللبناني.  
 شرارة، عبداللطيف. ١٩٩٣م. *شعراؤنا القدامى؛ الشريف الرضى، دراسة ومختارات*. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.

الشريف الرضى. ١٤٠٦ق. *الديوان*. طهران: وزارة الإرشاد.

الفاخوري، حنا. ١٩٨٧م. *تاريخ الأدب العربي*. بيروت: المكتبة البولسية.

## مكانة الشريف الرضى بين شعراء المديح

قباني، نزار. لانا. الشعر قنديل أخضر. بيروت: منشورات نزار قباني.  
مبارك، زكي. ١٩٨٨م. عبقرية الشريف الرضى. بيروت: دار الجيل.  
المتنبي، أبو الطيب. ١٩٨٤م. الديوان. شرح: البرقوقى. بيروت: دار الكتاب العربي.



پښتونخواه علمون انساني ومطالعات فرېنچي  
پرتال جامع علمون انساني